الحجاج

بين الإقناع والحكم

إيمانويل دانبلون

ترجمة : كمال التومي

1- الإقناع ليس هو الحكم

إن التوجه القاضي بخلق كثير من الخلط والحفاظ عل ى هذا الخلط في الحوارات يعتبر نتيجة منطقية لتقليد صار شائعا ويتمثل في تضخيم المفاهيم السياسية بهدف إضفاء طابع الإطلاق ية عليها. إن تضخيم القيم الذي غالبا ما يتم تأويله كضامن للجدية والحماية مبادئنا الكبرى، لا يكو ن مع ذلك ذا جدوى في العملية النقدية التي تستوجب على العكس من ذلك حكما ، بقدر ما يكون مضبوطا يكون دإقيقاكل ادعاء بأن قيمة من القيم مطلقة في حوار سياسي يؤدي طبيعي ا إلى اللا معقول. يبقى، مع ذلك، أن المرء يستند في أكثر الأحيان،في إطار ممارسته للنقإلى القيم كما لو أنها بديهية ونهائية . لكن عندما نتأمل هذا الأمر مليا، فإننا لسنا سذّجا إلى هذا الحد . ذلك أننا نعرف جيدا بأن المبادئ قد تم وضعهابفضل سلسلة من الأعراف ونعرف بأن تلك المبادىء تتطور بتطور المجتمع . إننا نعرف، ولو بكيفية خفية، بأن عادتنا في إضفاء طابع الإطلاقية على المفاهيم افتراض بلاغي يتيح لنا أن نرعى شعورا قويا بالانتساب لموروثنا الجماعي المشترك. لكن عندما تغدو الشحنة العاطفية أقوى، فإننا نعاني مصاعب جمة في تقبل الطابع العرفي لقيمنا.

بيد أن ذلك الجمع بين التعرض للانفعال البلاغي الذي يصون الرابطة الاجتماعية ويرعاها وبين نفاذ البصيرة الذي يتطلبه الموقف النقدي ليس أمرا متناقضا:إنه علامة نضجنا كنساء ورجال حداثيين . علينا ألا ننسى الحقيقة التالية :لا تساوي البلاغة شيئا بدون جمهور السامعين وجمهور السامعين هم رقيقي القلب وينبضون بالحياة ويتجاوبون مع إيقاع الانفعالات التي يعبر عنها الأفراد المكونون لذلك الجمهور.لقد أدرك أرسطو هذا الأمر جيدا . ولذلك جعل في مركز إواليته البلاغية، من بين ثلاثة أنواع بلاغية وضعها، النوع البرهاني le genre épidictique، ذلك النوع البلاغي الذي ينتج المديح والتوبيخ. لقد أدرك بالفعل أن النقد لا يساوي شيئا بدون الإقناع ، كما أدرك أن جمهور السامعين هم من الحصافة ما يجعلهم يحَكِّمون عقلهم من جهة ويتأثرون عاطفيا من جهة أخرى ، دون أن يتولد مع

ذلك يهلم بالشعور بأنهم في تناقض مع أنفسهم . إن هذه الإواليلا زالت فعالة في البلاغة إلى يومنا هذا. ومن المألوف،على سبيل المثال ، أن يختم القاضي الذي يمثل النيابة العامة في المحاكمات مرافعته بتوجيه توبيخ للمتهم . وعلى الرغم من أن ذلك التوبيخ ليس مفيدا في إثبات صحة وشرعية المحاكمة، فإنه يملك مع ذلك كل وزنه البلاغي الذي يتمثل في الحفاظ على تماسك المواطنين والتحامهم حول قرار ربما تطلب الوصول إليه عملا طويلا وشاقا . ذلك أن القضاة يعونأكثر من غيرهم بدون شك ، الدور الحاسم الذي تلعبه الفصاحة في سير وتدبير الحوارات.

ولكي نوضح هذا الأمر، علينا أن نأخذ كمثال المرافعة التي قام بها النائب العام جدعون هاوزنر في ختام محاكمة أدولف آيشمان:

إن آيشمان قد أقصى نفسه بنفسه من مجتمع البشرية بسبب بشاعة الجريمة التي اقترفها . لقد تنكر لكل وازع أخلاقي وأطلق العنان لغرائزه الأكثر وضاعة وخسة، تلك الغرائز التي وقف الإنسان المتحضر في وجهها بسن تعاليم أخلاقية وتعيين نواهي ومحرمات . إن قاتلا من القتلة ما يزال يلفي نفسه في نطاق الحياة الاجتماعية على الرغم من الفظاعة التي توحي بها جريمته . لكن هذا الحقير، أدولف آيشمان، قد أنكر على نفسه حق الانتماء للبشرية، ولهذا السبب تجد البشرية نفسها مضطرة لنبذه وأكاد أقول للفظه.»

يجب أن نسجل أن لـــ «محاكمة أورشليم»، التي حوكم فيها الموظف السامي النازي أدولف آيشمان، خاصيتين مهمتين . الخاصية الأولى تتمثل في كون أدولف آيشمان حوكم دائما كمتهم، إذ أن المحاكمة كانت «محاكمة المنتصرين» لا بل، وهذا هو الأسوأ، «محاكمة الضحايا» أي محاكمة لم يكن فيها الحكم سوى مهزلة طالما أن القرار كان يفرض نفسه على مجتمع كان من واجبه محاكمة أفعال مثل أفعال أدولف آيشمان الخاصية الثانية ناتجة عن الخاصية الأولى . لدرأ هذه الشبهة، نظمت هذه المحاكمة كم حاكمة «نموذجية». ذلك أن النائب العام قد اختار التقيد حرفيا بالمسطرة القضائية متفاديا ومنتقدا أحيانا بحدة كل مبالغة عاطفية وكل نداء يروم الشفقة على المتهم . والحال، أن المدعي العام، وهو في تناقض واضح مع قرار الحياد الذي اتخذه، يختم مرافعته بتوبيخ تام بلا قيد ولا شرط ، ويمكن أن نقول بتوبيخ نموذجي من نوعه، دافعا بالإقصاء المعنوي والنفي النفسي إلى أوجهما.

لكن من المناسب أن نثير الانتباه إلى أن حالة محاكمة أدولف آيشمان تشكل، على العكس من ذلك المثال التام لنجاح الطقس البلاغي إنه طقس يتلخص في الربط بين النقد الدقيق، أشد ما تكون الدقة، على الحجة وبين الإقناع الأكثر طلاقة، لكنه طقس يميز ما بين النقد والإقناع كل واحد

على حدة بما هو. إنه من غير المعقول أن ينظر المرء إلى توبيخ على أنه حجة، كما أنه ليس من المعقول أن يتصور المرء أن النقد وحده سينال القبول والموافقة. إن ما كان بديهيا بالنسبة لأرسطو قد غدا في نظرنا اليوم مصدر خلط نحن ضحاياه في حياتنا اليومية وتعاني منه بلاغتنا بكيفية مزمنة.

2- العرفي والاعتباطي

تواجه البلاغة وضعا معقدا، ذلك أن للأعراف حضورا طاغيا في الحوارات وفي الوقت ذاته توجد لدى الفاعلين الاجتماعيين صعوبة مزمنة في تحمل الوضع العرفي للعالم الاجتماعي. إن أحد المجالات التي تبرز فيه هذه المسألة، بكيفية واضحة وعلى نحو خاص هو مجال الحجاج القضائي. فقد وجد أرسطو في هذا المجال بالضبط، أكثر من غيره، صعوبات كثيرة في تحمل العرف. فالعدالة، مثلها مثل اللغة، تعتبر إحدى أقدم المؤسسات البشرية. ثم إن هذا القدم ربما هو الذي يمنح للعدالة وضعا فهو جيني: جانب وضع بشري على نحو ملموس في سير وتدبير الحوارات وفي أهمية القرارات والأحكام المتخذة، ومن جانب آخر وضع متأثر بكيفية عميقة بطقس له ارتباط بالمؤسسة والإماءة واللغة له أحيانا نبرات شبه دينية. إن هذه الوضعية، التي تميز النوع البلاغي الذي يطلق عليه أرسطو النوع القانوني le genre juridique تتمركز في الغموض الذي يميز موقفنا تجاه القضاة. ذلك أن المرء يميل إلى الريبة والشك في ذاتيتهم معتبرا أن مصالحهم الشخصية أو نفسيتهم لا بد وأن تضر ب **موضوعية** القرارات والأحكام القضائية المتخذة. لقد أمكن للمرء، في نطاق هذا المنظور، أن يتصور بأن بوسع البرهان القانوني أن يكون برهانا «خاليا من العيوب» و«خالصا» أي برهانا يقوم على حجاج يستمد نموذجه من البرهان الرياضي.

هو ذا مثال جيد يمكن للمرء أن يعاين فيه البعد البشري والعرفي للمؤسسة، لكن لا يتحمل فيه حقا تبعات هذا البعد، كما لو أن وجود الأعراف، في هذه الحالة أكثر من غيرها، يحرمنا من ضمانة كافية لتوطيد ثقة المواطنين وإثباتها. يمكن للمرء أن يتصور بأن إعطاء الأهمية القصوى للطقس في النشاط القضائي هو طريقة نتوخى من خلالها الحفاظ على مفعول القدسي l'effet de sacré لمؤسسة خاضعة مع ذلك للعلمانية كباقي المؤسسات الأخرى. إن مفعول القدسي هذا يستمد فيما يبدو أصله الشكلي من الملامح المميزة للمجتمعات الشفوية، وذلك باستعمال كلام سحري مطبوع بلغة إيمائية محددة وطقوس احتفالي يساهم بعده المرتبط بالملابس وبالمكان في نجاح الجلسة. إنها العودة الطقوسية للشعور السحري الديني القاضي بأن الإقناع هو علامة الحقيقة. من المؤكد أنه لم يعد لنا إيمان معقول

بسحر الطقس، لكن تنفيذه وإنجازه يحتفظ رغم ذلك بمفعول إقناعي يكون تأثيره بال فعل ضروريا لكي تحصل موافقة وقبول جمهور السامعين . ها هنا مرة أخرى بوسعنا أن ننظر إلى الطقس القضائي بما هو كذلك، أي باعتباره مؤسسة فقدت كل طابع ديني . بيد أن كل خلل في دواليب النظام يمكن أن يمس، كما هو الأمر في حالاتعدة، بثقة المواطنين ويضر بها، ونتيجة ذلك ه و أن الشك يأخذ شكل اشتباه في البعد العرفي للمؤسسة الذي يتهم في هذا السياق بأنه رياء ونفاق خال من أي معنى . فينفرد المشاركون في الحوار بفكرة العرف للحط من قيمتها تمهيدا لإقصائها وذلك على طريقة أفلاطون . يمكن للشك أن يلعب دوره بكيفية مباشرة حتى في قلب الحجاج . ها هو مثال لمشاركة أحدهم على مستوى الأنترنيت في مناقشة إحدى المحاكمات لجريمة الإبادة الجماعية الرواندية التي راح ضحيتها سن ة 1994 آلاف التوتسي على يد الهوتو:

«بالنسبة لمناصري التدخل العالمي في الشؤون الإقليمية la compétence universelle، تنطوي رمزية الحقيقة وكل ما يواكبها (ولاسيما القانونية وبذلات قضاتها، حيلها وذرائعها)على مزيتين اثنتين : أولاهما أن رمزية الحقيقة هي الضامنة لبزوغ حقيقة لها دلالة بالنسبة للجميع (جلادون وضحايا)، وثانيتهما أن لها الفضل في تأمين العبور من الحاضر نحو المستقبل، ومن الذاكرة نحو ال تطلعات المستقبلية بالنسبة للمعنيين الأساسيين . رب قائل، أيتم تصور مبدأ الضمانة ودور «العابر الزمني» إلا حسب هذه الطقوس؟ الرمزية والطقس اللذين لهما دلالة، أهما حكر على الغرب وعلى تركيبات الرمزي والخيالي المتعددة التي قام بها؟»

إن حجاجا كهذا، ينصب كل اهتمامه على الاشتباه في قانونية وشرعية حكم من الأحكام، ويبرر ذلك بأن الطابع الطقسي للحكم إنما هو دليل على بعده العرفي، وإذن على اعتباطيته، وإذن على نسبيته الشاملة. وبالفعل، يكفي، في نظرنا اليوم، أن يحصل تذمر طفيف في محكمة من المحاكم حتى تتحول عباءة القاضي، وهي بذل ة محترمة ورمز وظيفة القضاء، إلى قناع سخيف يدل على النفاق والرياء. فالشعور بالنفاق والرياء، وهو العقبة التي تقف دائما في وجه البلاغة، يجد مخرجه دائما في اتخاذ موقف صادم وعدمي . فيفضل المرء ألا يكون «ذلك الشخص المغفل والمخدوع » ويفضل بالتالي أن يرفض في ذات الوقت الأحكام القضائية ومعها المبادئ والقيم التي تقوم عليها تلك الأحكام . كما يفضل المرء أن يؤكد نسبية تطال كل شيء، وبالتالي يتصور أنه قد أفلت من قبضة سذاجة أولائك الذين «يؤمنون بالأعراف» إيمان المتوهم بأوهامه.

3- البلاغة والحقيقة

ما يبرر موقف المتشكك «غير الساذج» هو الرغبة في التخلص من الخوف تجاه عملية التلاعب والمناورة التي قد يتعرض لها، خوف من أن يغدو المرء ذلك المواطن الذي قد ينهض ذات صباح ويقول لقد كُذِب علينا. العلاقة بين اللغة والحقيقة معقدة إلى حد أسيء غالبا فهمها . يتعلق الأمر هنا بمسألة أصعب على المعالجة سنتناولها من خلال حالة تمثل لهذه الصعوبة . كان من المألوف أثناء حرب الخليج الثانية أن يدلي محمد سعيد الصحاف وزير الحكومة العراقية بتصريح كهذا التصريح:

عليكم أن تطمأنوا، بغداد ليست في خطر، بغداد محمية . لا يوجد علوج أمريكان في بغداد ولن يوجدوا. إني أؤكد لكم مرة أخرى لا يوجد جنود أمريكان في بغداد، إنهم لا يسيطرون على أي شيء، إنهم لا يسيطرون حتى على أنفسهم.»

يجدر القول أن المنتظم الدولي كان يغشاه القلق تجاه هذا النوع من الخطابات . وبما أن الأخبار التي تجيء على لسان الناطق الرسمي باسم الحكومة العراقية كانت خاطئة على نحو مفضوح، فيمكن للمرء أن يعتمد في تأويلها على فرضيتين أولاهما، وهي الأبسط، تفيد أن الأمر يتعلق بكذب صراح .

والحالة هاته، لماذا اللجوء إلى الكذب بينما لا أحد ينطلي عليه هذا الكذب؟ هل إن محمد سعيد الصحاف كان معتوها إلى حد الاعتقاد بأن العراقيين والمنتظم الدولي كانوا سيقتنعون بما كان يقوله عندما كان ينفي الحقيقة البديهية؟ من المحال . وإذا كان هذا الرجل لا يكذب، فمعناه أنه كان يفعل شيئا آخر. ولكن ما هو إذن هذا الشيء؟ عندما يتفحص المرء هذا النوع من الكلام فإنه يجد أن له عدة قواسم مشتركة مع الخطب المميزة للخطابات البرهانية المخصصة لتهييء الجنود الذاهبين إلى الحرب نفسيا أو فريق كرة القدم الذي يستعد لمواجهة خصومه . والحالة هاته، نعلم أن البلاغة البرهانية لا تعير اهتماما للحقيقة بل تروم فقط الإقناع . يعلم الجنود الذين يذهبون إلى الحرب أنهم سوف يتعرضون بالضرورة الأقوياء، كما يعلمون بأنهم يخاطرون بحياتهم . لكن للتشجيعات آثار إقناعية مؤكدة على الجنود واللاعبين، آثار يتضح أنها مهمة جدا للحفاظ على الرابطة الاجتماعية وتقويتها . والحال أن ما هو غريب ومعقد في هذه الحالة بالضبط هو **الخلط في الأنواع** .إن الناطق الرسمي باسم النظام العراقي لا يقدم خطابا مملا، بل يطرح أخبارا سياسية وعسكرية على الساحة العالمية . هذا الكلام في نظرنا لا يتلائم مع المقام ولا مع جمهور السامعين . ومن هنا الفرضية الثانية التي تفيد أن هذا الرجل غير متكيف مع الواقع وغير منطقي وهذا هو التأويل الذي فضله الأمريكيون على نحو مكثف . لقد

انفردوا بشخصية الصحاف ليجعلوا منه تميمة، وفزاعة مثيرة للسخرية وذلك عندما كانوا يرددون أقواله كأخطاء تثير ضحك كل الناس . هل اختار العراقيون رجلا حالما ليمثلهم، رجلا غير متكيف إطلاقا مع الواقع السياسي في تعدده؟ غير أنه يمكن الدفع بفرضية ثالثة، وهي فرضية على قدر كبير من الواقعية. إن بلاغة الناطق الرسمي العراقي تستقي تقاليدها من مجتمع متأثر إلى حد بعيد بالتقاليد الشفوية حيث يتم الخلط بكيفية اعتيادية ما بين التشاور السياسي والخطب البرهانية، بمعنى أن الأنواع البلاغية غير منفصلة بعضها عن بعض على نحو مؤسساتي كما هو الشأن في الغرب . بل إن الأمر يتعلق فقط بعادات بلاغية تميز مجتمعا منغلقا وغير معلمن وغير ديمقراطي . وعليه، مهما تكيف الوعي بالرهانات السياسية مع الدوكسا العالمية، فإن البلاغة هي البلاغة، والخطباء إنما هم رجال يعكسون ثقافتهم. إن هذا المثال يفد في شيئين . أولهما يسمح بفهم واستيعاب، على نحو ملموس، بلاغة المجتمعات المنغلقة؛ وثانيهما يوضح عجز الغرب على إدراك للمقاصد البلاغية التي يعبر عنها مخاطبو الغرب الإدراك المهنا. هذا العجز مرتبط جزئيا بتمثل الغرب للحقيقة، وبالوضع النقدي للحقيقة وكذا باستعمالاتها البلاغية